الفصل الرابع

يوتوبيا

سير توماس مور

الكتّاب فئتان : فئة جذبت الناسَ الى إنتاجها الأدبي لِما اشتمل عليه ذلك الإنتاج فى ذاته من الطرائف ، وبدائع الوصف ، وجوامع الكلم ، وجمال الأسلوب ؛ وفئة كان للحظّ والصدفة ، أو لقيام لفيف من الناس بالدعاية لها ، أثرٌ كبيرٌ فى تقديمها للمثقّفين ، وتقريبها من الناس ، وإقامتها رمزاً لِلوْن خاصّ من الأدب ، أو مثالا لطابع مدرسة مخصوصة فى الفلسفة ، أو مذهب معين فى التفكير . إلى هذه الفئة الثانية يُنسب سير توماس مور ؛ فقد كان زعيماً لعصر من العصور فى انكلترا أو رمزاً لمُثُله العليا . كان أول شخص عارض فى انكلترا جمهورية افلاطون ونسج على منوالها . سمى كتابه « يوتوبيا » فأخرج بذلك للعالم الغربى عالماً ووَصْفاً ، كثيراً ما أسيء استعماله . يقولون : إن هذه أهداف «يوتوبية» ويعنون بذلك أنها مُثل عُليا يتخيّلها المرء ولا يستطيع تحقيقَها . لقد رسم مور صوراً للمسائل الحديثة كما أنتجها العقل الانكليزى فى ظل فلسفة أفلاطون . وعلى ضوء مبادئها . وفى الواقع إن المسائل التى أخذت على مور لبّه واستأثرت بتفكيره ، واستغرقت كل ساعات حياته ، لا تكاد تختلف كثيراً عن المسائل التى تُزعجنا اليوم ويستعصى علينا إيجاد حل مناسب لها . إن بعضا من تلك المسائل تكاثر وتزايد باتساع جواهره وانضمام أغراض جديدة اليه ، وتكوّن من ذلك الاتساع وهذا الانضمام مجموعة كبيرة من المشكلات أقضّت مضاجع المفكرين والساسة والعلماء اليوم وحيّرت أوهامهم .

ويوتوبيا تتألف من كلمتين يونانيتين ، معناهما « ولا فى مكان » . وقد كتبت سنة ١٥١٦ ويتبين منها مقدار ما أصاب مؤلفها من الاضطراب وما ساوره من القلق بسبب ذيوع آراء معينة فى صلة الدولة بالكنيسة فى أيامه . لقد قاوم مور الملك هنرى الثامن فى ادّعائه بأنه رأس الكنيسة ، فأدّى ذلك إلى إعدامه فى سنة ١٥٣٥ م ؛ وكان لموته رنة حزن وأسى اجتاحت أوربا بأجمعها . لقد ولد مور فى سنة ١٤٧٨ م . كان مور عالماً وفقيها . وقد تأثر بأبحاث سيرجون كولت ، زعيم علماء عصر النهضة فى انكلترا ، وتعشق نظريات وأفكار إيرازموس ، العالم الاجتماعى الهولندى . وقد رُسم مور قاضياً لقضاة انكلترا فى سنة ١٥٢٩ خلفاً للكاردينال وولزلى .

تظهر لنا من الصورة التى رسمها لمور معاصروه ، ومما وصل إلينا من اعترافاته وأحاديثه ، المقصودة والعرضية ، أنه كان رجلا ذكياً حادّ الذهن متوقّد القريحة صابراً مثابراً على العمل يتعشق النكتة والدُّعابة ويميل إلى السخرية والتهكم ، واسع الأفق والاطلاع . قلده فقهه وعلمه أرفع المناصب فى بلاط مليكه ، ولكن ترفعه عن منادمة الملك خلق فى نفسه موجدة على مور كانت السبب فى هلاكه آخر الأمر .

يبدو أن مور بدأ حياته واختتمها معتنقا المذهب المحافظ فى الدين . كان محيطاً بعادات عصره ، مُلماً بعقائده ومذاهبه ؛ وقد لعب دوراً جليلا فى حياة بلاده العامة . إن اهتمام الناس بدراسته لا ينصبُّ على شؤونه الطبيعية التى يشارك فيها مور بقية أبناء عصره ، ولكنه يتمركز فيما بدا فى مور وظهر عليه من الشك فى كل ما انطوت عليه الظواهر الاجتماعية من حقائق مريرة نبهه الى وجودها وأثار كوامن نفسه عليها ما درسه فى تراث افلاطون ، فقام بتدوينها والبحث فيها . وقد يتساءل المرء ما اذا كان هذا الشك لا يتفق مع الطبائع الانسانية ؟ وقد يتساءل كذلك عما اذا كان كبار

الساسة وكبار علماء الاديان وكبار رجال الإدارة لم ينتقدوا فى قرارات نفوسهم المبادئ والأصول والأركان التى قامت عليها أعمالهم ؟ غير أننا نجد بينهم نسبة ضئيلة جاءت علناً وصراحة باعترافات تشبه من قريب أو بعيد ما خلفه لنا سير توماس مور . كان مور كاثوليكيا متعصبا لمذهبه ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يُصوّر للناس مُجتمَعاً لا يدين بالمسيحية ، ومع هذا انتشرت بين أفراده مبادئ الحكمة وتأصلت فيهم أسس الفضيلة . والواقع أن مور كان متمسكاً من الوجهة العملية بتعاليم المسيحية ، ولكنه خرج فيما كتبه ، عن عمد وتصميم ، على تلك التعاليم ، وقال مطمئناً بوجوب بناء مجتمع على أساس التسامح الدينى المطلق[١] .

وكتاب سير توماس مور (يوتوبيا) هو من الكتب الخالدة على الأزمان ؛ وقد أحيا به مذهب أفلاطون ؛ وأوجد فى الوقت نفسه مذهباً جديداً بسطه أمام الأجيال القادمة . ولكن الكتاب ، مع كل ما فيه من المسائل التى فيها مجال للقوة ، ما يزال لغزاً أمام القراء يُفسّره الناس ويحلون رموزه كما يشاءون وتشاء لهم مشاربهم ونزعاتهم المتغايرة . ولسنا نقصد إلى أن نقول إن هناك إبهاماً وغموضاً فى الآراء التى سطرتها هذه القصة الخيالية على لسان الذين اشتركوا فى الحوار ، ولا سيما فى نقد حالة انكلترا فى القرن السادس عشر مما تفرد به الرحالة الوهمى (رفائيل هيثلودى) . فلم يكن هناك إبهام أو غموض ما . فقد أبان رفائيل بنقده اللاذع حالة البلاد ، وتجشّم أعباء بيان عيوب العالم ونقائصه ، ووضع صورة خلابّة لعالم يخلو من العيوب والنقائص التى اشتكى منها . على أنه قد يحلو للمرء أن يبحث ويستقصى قبل أن يقرّر هل الغاية التى يرمى اليها

---

١ - More's - Utopia, Translated by Ralph Robinson, Introduction by H. G. Wells.

كتاب (يوتوبيا) هى انعكاس للصور التى ارتسمت فى نفس مور عندما سطر الكتاب . والواقع أن من يكتب رواية أو يصنف حوارا لا يمكن أن يعتبر مسئولاً عن جميع الآراء والأفكار التى تنطق بها رسائله على لسان جميع دُمى الرواية . وفى حالتنا الحاضرة نجد أن هناك ثلاثة أشخاص روائيين فى الكتاب ، هم مور نفسه ، وبطرس جايلز ، كاتب مدينة أنترب — وهو الذى أنيط به نقد شؤون الحياة فى انكلترا خاصة ، وفى أوربا بوجه عام ، والمقرر عن جزيرة يوتوبيا المباركة . والشخص الثالث هو رفائيل — وقد اختص بالإفصاح عن كل المسائل الجوهرية فى الكتاب . بينما لم يكن الاثنان الآخران سوى مستمعين سهلى القياد يوافقان المتحدث على كل ما يقول . وقد يكون من الحق أن نقول هنا إن مور قد نسب إلى نفسه صراحة دفاعه المجيد عن الملكية الفردية أمام تمجيد الشيوعية وملاحظته فى الصفحة الأخيرة من الكتاب وهى تحذير صريح يوجه للقارئ حيث قال : « وإننى فى الوقت نفسه أصرح أنى لا أستطيع أن أوافق على كل ما قاله (رفائيل[1]) . هل يوتوبيا مجموعة حكم لا يليق بالناس أن ينظروا اليها نظرة جدّية ، أم أنها فى الواقع قطعة أدبية أطلق كاتبها لنفسه عنان الخيال وملأها بأوتاد كثيرة يرتكز عليها فى نقد شتى المواضيع ؟ أم أن تصاول رفائيل وتجواله فى ميدان النقد كان صورة عكسية لما ارتسم فى نفس مور من الأمور المختلفة ، فقد ضاق ذرعاً بالحياة بين أقرانه ومعاصريه فاتخذ من الحوار الخيالى الذى اخترعه منفذاً يقذف منه بحممه المتأججة الى العالم ثم يبرأ الى الناس من كل مسؤولية تنتج عن أقوال ومحاورات أشخاص روايته ؟ ذلك لأن يوتوبيا — ولا يضير هذا الرأى أن نجيب على هذه الأسئلة بالايجاب أو النفى — كتاب عجيب بالنسبة الى سير توماس مور .

---

١ — ص ٢٠٣ Utopia, Ed. Blackie & Son. London

لقد ألف مور الكتاب فى سنتى ١٥١٥ - ١٥١٦ م عندما كان فى السابعة والثلاثين من عمره ، وكان قد تدرّج فى سلم الرقىّ فى خدمة دولته إلى أن بلغ أرفع المناصب . وصفوة القول أنه ليس من المألوف أو المتعارف أن يقوم رجال الدولة وهم ما يزالون فى الخدمة الفعالة ، فيبينون أنواع الظلم ، وأصناف العذاب ، وألوان الجور والطغيان ، التى يقاسى ويلاتها مواطنوهم ؛ حتى ولو كان بيانهم على لسان شخص خيالى كرفائيل هيثلودى . ولعل مسألة أخرى توضح هذه الحال . لقد كان الواجب أن تكون يوتوپيا من أعظم كتب الأدب الكلاسيكى الانكليزى . بيدَ أنها كتبت باللاتينية وطبعت فى خارج إنكلترا سنة ١٥١٦ م ولم تظهر منها ترجمة انكليزية قبل سنة ١٥٥١ بعد أن أصبحت ترجماتها الألمانية والايطالية والافرنسية فى متناول الأيدى . ولو سلمنا أن مور كان يقصد إلى أن يزوّد العالم بشحنة من المواد الملتهبة والنظريات الثورية ، فقد كانت نيته تتجه لا محالة الى توجيه تلك الشحنة لا إلى جميع الناس ، وإنما اقتصر فى توجيهها « إلى الذين يحذقون اللغة اللاتينية » .

إن ابتكار وكتابة « اليوتوپيات » هو من صفات الضعف الملازمة للجنس البشرى ، ولولا أن كاتب « يوتوپيا » التى اغترف من بحرها جميع الذين حاكوها فى التفكير والكتابة كان من أشرف وأشجع الناس ، لحقّ لنا أن نقول إن تلك الكتب « هى سبيل الجبان الى الهروب من مجابهة الحقيقة » . وقد يقال إن القصص المبهجة (على اعتبار يوتوپيا قصة مبهجة) تتخلل محيطاً للقراءة أوسع من غيرها ، ذلك بالقياس الى « الاساطير » التى يتناقلها العامة جيلا بعد جيل ، فيرويها الساذج من الناس الى السذّج منهم ونحن على يقين بأن الحقائق التى تدس فى القصص تصل الى كل مكان حتى أنها تدخل الى أحقر الأبواب . وقد يكون من الصواب هنا أن نشير إلى وضع مور الخاص نفسه : فقد كان يعيش فى ظلال حكم هنرى الثامن ، وكان من الخطر البالغ عليه أن يبرز آراءه سافرة ، فوجد من حسن السياسة

وبالغ التحفظ أن يعمد إلى سترها بقناع من الرواية والخيال . بيدَ أن الضعف الملازم لكل (يوتوبيا) هو صعوبة إيجاد سبيل لتحويل هذا العالم الفاسد إلى عالم صحيح . إن كتّاب اليوتوبيات ينتقلون بك من هذا الوجود ، إلى جزيرة فى بحر سحرى أو إلى كوكب آخر ؛ أو انهم ينتقلون بك إلى المستقبل البعيد ، ومن هناك يُطلون على الماضى البعيد فيرثون لأيامه المظلمة ، أو انهم قد يهبطون بك الى جوف الأرض إن رأوا السلامة فى ذلك . ومهما تكن الحال فانهم يعرضون على القارئ أن يشاهد مجتمعاً إنسانياً تسوده الحكمة ويعيش أبناؤه سعداء لآجال طويلة . ولكن الصعوبة التى تمثل أمامنا هى الصعوبات الإدارية للتنقل بين الحالين . إن يوتوبيا هى جنة سماوية . ومن السهل علينا أن نعيش فيها عيشة راضية راغدة متى دخلناها . ولكن الصعوبة هى فى السبيل الى بلوغها والدخول فيها .

وثمة مسألة أخرى تتعلق باليوتوبيات بوجه عام ؛ هى فى الواقع أيسر مما تبدو لأول وهلة . ذلك أننا إذا نظرنا إلى مؤلفى هذه الكتب نجدهم رجالا لهم منزلة رفيعة ومكانة مرموقة فى عالم الفكر ؛ يضعون منهاجاً لدولة سعيدة ويصفونها لنا ويكشفون عن إدارة المؤسسات الفاضلة فيها ؛ وفى كل الأحوال يؤكد هؤلاء الكتاب لنا أنه لم يكن يوماً ما على الأرض من الناس من شملتهم السعادة جميعا وعاشوا فى نعيم مقيم كسكان تلك المدن الفاضلة . ومع ذلك فاننا لم نطّلع بعد على يوتوبيا وضعها مؤلفها على وجه يُحبِّب إلى إنسان عاقل أن يعيش فيها إذا قُيض له أن يدخلها ويخرج منها . والواقع أنه على الرغم من وفرة وسائل الراحة ، وعلى الرغم من نقص ساعات العمل ، فليست هنالك يوتوبيا واحدة ليست الحياة فيها ـ على ما وصفوها لنا ـ متعبة مكدرة متبذلة خاسرة . وليست علة ذلك كونها بعيدة المتناول : فان الحياة فى يوتوبيا قد أصبحت فى حالة ثابتة على وتيرة واحدة

ملة وطبقا لمنهاج واحد ثابت لا يتغير . فما من حادث يقع أو حدث يتم ؛ وليس هناك أحد من السكان يخالف أحـــداً ويختلف معه فى الرأى . أما الحكومة ، ومهما يكون شكلها ، فقوامها رجال حكمـــاء يسيرون بها فى الطريق المستقيم فتستحق الشكر دائماً ولا يوجد من ينتقدهـا أبدا ، « فالحياة لون وحرارة ونور ، وجهاد متواصل لتوفير هذه الطيبات دائماً » . وقد بلغ الانسان فى يوتوپيا درجة الكمال ولم يبق أمامه من الأغراض ما يجاهد من أجله .

ولكن ليس هنالك من العوامل فى يوتوپيا ما يدفع الى الحياة والحركة . وعلى هذا فالنتيجة أن الحياة تصبح راكدة مضجرة . يقول رفائيـــل فى وصفه ليوتوپيا ببساطة تعبر عن سذاجته :

« إن من يعرف إحدى مدنهم ، يعرف ، فى الواقع ، جميع تلك المدن » .

إن هذا القول دون الحقيقة بكثير . فان من يعرف أحد أبناء يوتوپيا يعرف جميع سكانها ؛ وقد يتجاوز المرء الحدّ ويقول إن من يعرف يوتوپيا واحدة يعرف جميع المدن الفاضلة . فلم يقع حادث ما ، ولن يقع حادث ما فى أى منها .

ومع هذا وعلى الرغم من أن وصف الحياة فى المدن الفاضلة ـ ورَغَد العيش الاجتماعى فيها ـ قد يجعل الحياة ناعمة راضية مسلية ليس إلا ، وهى على هذا الوصف لا تستحق شيئا من الإعجاب ، إلا أن الأفكار التى أوحت بهذا الحلم اللذيذ تستحق كل عناية وتقدير . وأصدق ما ينطبق عليه هـذا الرأى هو يوتوپيا نفسها . لقد خلدت يوتوپيا على الأيام لا لأنها وصفت جنة (عماروت) الواقعة على نهر (أنيدر) وصفاً جميلاً خلاباً ، أو لأنهـا أظهرت جميع سكانها بمظهر الحكماء ؛ وإنما خلدت لأنها ، زيادة على كل ذلك ، أظهرت شرور الحياة الاجتماعية وظلم الأحكام فى أيامها من جهة ، ولأنها

كانت من الأسباب التى نبهت الأفكار وهيأت النفوس للبحث فى مساوئ حكم البلاد فيما بعد من الجهة الأخرى .

تقع يوتوبيا فى « كتابين » ، والكتاب الأول منهما ، مع أنه على الغالب يختص ببحث الأحوال السيئة التى كانت سائدة فى انكلترا خلال الحقبة من الزمن التى تقع سنة ١٥١٦ خلالها ، فان نقده اللاذع ينصبُّ ، علاوة على انكلترا ، على الأمراء والزعمـــاء الذين كانوا يحكمون غربى أوربا . أما الكتاب الثانى فينحصر موضوعه بالمقابلة بجزيرة يوتوبيا السعيدة التى أنجتها تدابير ملكها السابق (يوتوبوس) وإدارته الحكيمة من الشرور والآلام التى ما تزال نقاسى مثل ويلاتها . ونشاهد فى هذا الكتاب مور وبطرس جايلز يجلسان على ضفة خضراء فى إحدى جنات أنتيرب ، وهما يصغيان إلى أحاديث الرحالة الفيلسوف رفائيل هيثلودى . ويتمنيان أن يدخل رجـــل بمثل مقدرة رفائيل وخبرته التامة فى شؤون الحياة الحقيقية ، فى خدمة أحد الأمراء ؛ ولكن رفائيل يقرر أنه لا يصلح لخدمة أمراء هذا العالم الذين هم بوجه عام « يعملون لأن يحرزوا ويحوزوا ، بالحق أو الباطل ، مـــا لك جديدة ، دون أن يعملوا على إصلاح أساليب الحكم وتحسينها فى الممالك التى هى تحت إمرتهم وخاضعة لسلطانهم [١] . ونجد رفائيل ، وهو برتغالى المولد عالماً بشؤون وأحوال إنكلترا فى أيامه وخبيراً بها . لقد كان الزمان عصر فقر وتشرُّد وسلب ونهب ؛ وكان من بين العوامل التى أعقبت هذا الوضع إنشاء الإقطاعات الواسعة المسوَّرة وجعلها أراضى محفوظة محظوراً دخول الماشية والأنعام إليها . « هنالك سبب آخر للسرقة وهو — على ما أعتقد — مختص بكم ومقصور عليكم أيها الانكليز دون غيركم : إن أغنامكم التى اعتادت

---

١ — ص ٣١ من الكتاب .

أن تظل وديعة أليفة لا تعرف النَّهم وتقنع بالعلف القليل أصبحت اليوم — على ما بلغني — نهمة لا تبقي طعاماً إلا أكلته ، ولا تذر علفاً إلا ابتلعته ، حتى إنها تأكل الناس أنفسهم . وهي تستهلك وتتلف وتفني مزارع كاملة وبيوتاً ومدناً بأجمعها . وما عليك لكي تعرف ذلك إلا أن تبحث عن أقسام المملكة التي تنتج أجود الأصواف وأغلاها ثمناً . في تلك الأصقاع والبقاع أيها النبلاء ، وأيها الأفاضل : حقا إنكم أنتم ومثلكم بعض رؤساء الأديار ، وهم — ولا شك — رجال مقدسون ، لم يرضوا بالإيراد السنوي والأرباح التي كانت تنساب إلى آبائهم الأولين وأسلافهم من أراضيهم ، وبالأمن والسعادة ، بل أقلقوا بال الشعب ونغّصوا عيشه ، فلم يتركوا أرضاً تُستغل للزراعة ، وإنما اقتطعوها وسوروها وجعلوها مراعي محفوظة : وقد خربوا مدناً قائمة ، وهدموا بنايات من أركانها ، ولم يدعوا حائطاً يعلو سطح الأرض ، اللهم إلا الكنائس التي اتخذوا منها زرائب للأغنام . ومع أنكم فقدتم مساحات شاسعة من الأراضي للغابات ومفارز الصيد والحدائق العامة ، نشاهد هؤلاء الرجال المقدسين يحوّلون جميع المساكن وجميع أوقاف الكنيسة إلى أطلال نهبها البلى فأصبحت خراباً يباباً ينعق فيها البوم ويعشش فيها الغراب . وقد قام كل طاغ جشع من جهته فسوّر في ناحيته عدة آلاف من الفدادين وجعلها اقطاعاً واحداً خالصاً له من دون الناس . أما المزارعون وأصحاب الأغنام فقد أخرجوا من ديارهم ، تارة بالخديعة والحيلة ، وتارة بالضغط والظلم والإكراه ، وطوراً اضطرهم إقلاق الراحة والأذى إلى بيع أملاكهم بأسعار بخسة دراهم معدودات : وعلى ذلك فقد أجبرتهم الظروف على النجاة بأنفسهم فقراء منهوكي القوى مهيضي الأجنحة رجالاً ونساء ، أزواجاً وزوجات ، أيتاماً وأرامل ، أمهات ثكلى بأطفالهن ، كثيري العدد قليلي المؤن والعِدد لأن الزراعة تستلزم سواعد كثيرة . يهجرون بيوتهم التي ألفوها هائمين على وجوههم لا يجدون ملجأ يأوون

اليه . ومع أن أثاثهم وأمتعتهم لا تكاد تساوى شيئا ، فان خروجهم من ديارهم بالقوّة يحملهم على التخلى عنه بثمن بخس جداً . وبعد أن يهيموا على وجوههم وينفقوا ما بأيديهم من النقود هل يجدون أمـــامهم سبيلا للعيش سوى اللجوء إلى ارتكاب السرقات ، وعندها نرى فريقاً منهم يُشنقون وفريقاً يجوبون البلاد يتسولون ، ثم يقبض عليهم ويزج بهم فى غيابات السجون لأنهم شريرون لا يعملون عملاً ما . والواقع أنهم لا يجدون من يعطيهم عملا وهم راغبون جداً فى العمل ويمقتون البطالة ويمجون حياتها[1] .

وهكذا تُصوِّر لنا (يوتوبيا) كيف أن أفاضل الرجال يُرغمون على التسكع فى الطرقات مع المجرمين المحترفين ، ويُقدر أن تكون خاتمة مطافهم أن يقتلوا على أعواد المشانق . أما المصدر الثانى الذى ينشأ فيه السارقون ويتكاثرون فهو قصور النبلاء الطفيليين ، لأن هؤلاء الناس لا بد لهم أن يعمدوا إلى العيش من السؤال والسرقة عندما يفقدون وظائفهم . ولما كان هذا الأمر هو من النغمات المتكررة فى يوتوبيا الملازمة لأبحاثها سندع رفائيل هيثلودى يحدثك عنه :

« تجدون بينكم عدداً كبيراً من الشرفاء هم أكسل من يعاسيب النحل يعيشون عالة على الآخرين ؛ عالة على كدّ فلاحيهم وكدحهم ؛ وتجدون هؤلاء السادة ، يأخذهم الغضب ويرتكبون جميع الموبقات فى سبيل الحصول على إيرادهم . . . ولا يعيشون وحدهم عاطلين عن العمل كسالى ، بل يجرّون وراءهم ذيولا طويلة من الخدم الذين لم يتعلموا قط صنعة أو حرفة يتعيشون منها . وعندما يموت سيد هؤلاء الناس أو يصابون بمرض ما يطردون إلى خارج الأبواب . . . وعندما يجوعون لا يجدون لهم مندوحة عن السرقة يتعيشون منها . وماذا تنتظر منهم أن يفعلوا ؟[2] » .

---

١ - ص ٣٩ - ٤١ ٢ - ص ٣٥ - ٣٦

ويؤدى بنا هذا البحث الى النظر فى شدّة قانون العقوبات وصرامته ، كما تظهر من جعل الاعدام عقوبة لكل سارق مهما تكن ظروفه . على أن رفائيل هيثلودى قد رفع عقيرته فى حديث له ضد عقوبة الاعدام بوجه عام . وقد اعتبرها مخالفة للقانون الإلهى وافتئاتاً عليه . « فقد نهانا الله عن القتل . أنستعمل قتل الانسان من أجل دريهمات قليلة[1] ؟ » . لقد كان سوء الحكم فى كل مكان ، وجشع الأمراء والحكام الذى لا حدّ له ، وإهمال هؤلاء شؤون رعاياهم الحيوية ، وسوء تصرف الاغنياء العاطلين عن كل عمل ، وأعمال الشقاوة والإجرام التى يقوم بها المتلصصون ، وانتشار أعمال السلب والنهب ، وشنق الناس دون ما تمييز ، ومخالفة تعاليم الدين ـ كل هذه العوامل مجتمعة ـ التى سادت العالم بوجه عام ، ولازمت الحياة الاجتماعية فى انكلترا آنئذ ، وهى العوامل نفسها التى ألهمت رفائيل هيثلودى أبحاثه فى (يوتوبيا) . وبعد انقضاء فترة من الزمن خُصِّصت لتناول طعام الغداء جلس مستمعوه مرة أخرى على الضفة الخضراء ذاتها ، فبدأ رفائيل يبسط أفكاره ويفصّل آراءه فى الكتاب الثانى .

لعلّ من الصواب لنا أن نبحث هنا فى الحياة فى (يوتوبيا) بحثاً مقتضباً لا يشوبه التطويل والاسهاب ، إلا إذا اقتضت شؤون السكان الخاصة الإفاضة فى تصوير مبادئها . إن (يوتوبيا) هى جزيرة شيوعية لم يعد فيها مكان للملكية الفردية وحقوقها . أما من جهة السلوك الخلقى فيظهر أن السكان هم من أتباع بنتام المثقفين لأنهم يعتقدون « باللذة » مع تحفظ واحد فقط : ذلك أنه يجب أن لا تحجب اللذة القليلة لذة أكبر منها ، وأنه يجب على الانسان أن لا يتمتع بلذة يعقبها أذى وضرر كبير » . والظاهر أنهم كانوا

---

١ ـ ص ٤٥ من يوتوبيا

ملمّين بنظريات اللذة والألم[١] (Felicific Calculus) . أما فى الشؤون الدينية « فقد كان رجال الدين على جانب عظيم من الصلاح ، ولذلك فقد كان عددهم قليلا . و (يوتوپيا) بلاد قوانينها تكاد تعد على الأصابع وليس فيها محامون ـ همهم إخفاء الحقائق وإفساد القانون ـ ومن خواص سكانها الأخرى أنهم « يحيون راحتهم » و « يبتهجون كثيراً بالمُجّان » .

إن الحياة فى يوتوپيا خاضعة لحكم شديد مطلق ، وكل أمر من شؤونها يجب أن يكون طبقاً لأنموذج معين يقتدون به ويقلدونه . وجميع المدن مرقمة وتقع على مسافات متساوية بعضها من بعض . « وفى الجزيرة أربع وخمسون مدينة كبيرة يجمعها لسان واحد ، ويصدر سكانها عن عادات وتقاليد واحدة ، ويخضعون لأحكام قانون واحد[٢] » . وعدد الأسر التى تسكن كل مدينة ، وعدد أفراد كل أسرة تقيم فى الريف أو فى المدينة مربوط بقدر معلوم : « ولا تجد داراً ومزرعة يقطنها عدد من الناس يقل عن الأربعين شخصاً ، رجالا ونساء ، بالاضافة الى مملوكين اثنين من الرقيق . وهؤلاء جميعا يخضعون لادارة رب الدار وزوجته ، وهما شيخان حكيمان وحازمان . ولكل ثلاثين مزرعة أو ثلاثين داراً حاكم عام هو فى الواقع أمين عام[٣] . « ولا يجوز أن يزيد عدد الأسر فى كل مدينة عن ستة آلاف ، ويجب أن يكون فى كل أسرة فى المدن عدد لا يقل عن عشرة أولاد ولا يزيد عن ستة عشر ولداً أعمارهم فى الرابعة عشرة أو تقاربها[٤] . ولهم قضاتهم — حكامهم ونقباؤهم — إذا كان فى هذه المعلومات فائدة ترجى . ولهم أمير

---

١ - ص ١٤ ٢ - ص ٨٥

٣ - ص ٨٦ ٤ - ص ١٠٦

ومجلس عام لتصريف أمورهم . ولكن المواطنين العاديين ـ شأنهم فى ذلك شأن رعايا كل الدول ذات الحكم المطلق التى يسودها شكل الحكم الاستبدادى ـ ممنوعون من التدخل فى شؤون الدولة . « والحكم بالموت ينتظر كل من يجتمع ويتشاور فى شؤون الدولة خارج دار المجلس أو خارج دار جمعية الشعب العامة . وهم يقولون إن هذا القانون قد وضع للحيلولة دون تواطئ الأمير والنقباء وتآمرهم على ظلم الشعب وإخضاعه لرغباتهم بالقوة . ولذلك فان المشروعات الجليلة الهامة يطرحها النقباء بادئ الأمر على بساط البحث أمام أسرهم فى دار جمعية الشعب . وبعد أن تتشاور الأسر فيها تعلن قرارها إلى المجلس . وفى بعض الأحيان ترفع المسألة بكاملها الى مجلس الجزيرة العام[1] . وينتخب النقباء ـ وعددهم مئتان ـ أميراً للمدينة . وهم يقسمون أولا على انتخاب من يعتقدون فيه الكفاءة والصلاح ، ثم ينتخبون بطريق الاقتراع السرّى . ويجب أن يقع الانتخاب على واحد من الأربعة الأشخاص الذين يعينهم الشعب . ويستمر الأمير فى منصبه طوال أيام حياته ، إلا أن يُخلع أو يعزل لظلمه الشعب . أما النقباء فيجدد انتخابهم سنويا . ويحضر النقباء مع الأمير الى دار المجلس مرة كل ثلاثة أيام إلا إذا اقتضت المصلحة حضورهم فى فترات أخرى أقصر من ذلك[2]. وتحمل (يوتوبيا) حملات شديدة على التجمع فى الحانات والتنقل فى شجون الأحاديث هناك ؛ لئلا يتخذ من الجلوس فيها ستاراً للبطالة والكسل . « لا توجد فى الجزيرة حانات للخمر والمَزْر ، ولا توجد فيها مطابخ ومطاعم عامة ، وليس فيها أماكن معدّة للفسق والفجور ، وأيضاً ليس فيها أماكن

---

١ - ص ٩٥ ٢ - ص ٩٤

جمعيات الفساد [١] » . يمارس كل فرد من السكان صناعتين ، الزراعة ـ وتعلمها واجب على كل رجل وامرأة فى الجزيرة ـ وصناعة أخرى كنسج الثياب من الصوف والكتان وأعمال البناء والحدادة والنجارة وما إلى ذلك [٢] . أما لباسهم فهو من شكل ونوع متماثل يلبسه جميع سكان الجزيرة ولا اختلاف فيه إلا ما يميز الرجل من المرأة ويميز المتزوج من الأعزب ... وكل أسرة تحيك ثيابها بأيديها . وهم يلبسون للعمل أردية مصنوعة من الجلد ويغطونها بعد ساعات العمل بأقبية مصنوعة من الصوف تُلبس بلونها الطبيعى فى جميع أنحاء الجزيرة [٣] . ولا تتغير أزياء الملابس أبداً . وقد قسموا اليوم فى (يوتوبيا) الى أربع وعشرين ساعة خصصوا منها ستاً للعمل ، ثلاثاً قبل الظهر يقضونها ويتوجهون مباشرة لتناول الغداء ، وبعد ذلك يستريحون ساعتين ويعملون ثلاث ساعات أخرى ثم يتوجهون إلى موائد العشاء . ويذهبون إلى النوم فى الساعة الثامنة مساء ، فينامون ثمانى ساعات . ولكل امرئ أن يقضى أوقات فراغه ـ أى الأوقات التى تتخلل ساعات العمل والنوم والطعام ـ كما يشتهى ويختار ، شريطة أن يستمع الى بعض المحاضرات فى مختلف العلوم يوميا فى الصباح ، وأن لا يشغل نفسه فى الفساد والكسل [٤] . ويجب على كل إنسان أن يعمل ويشتغل ، ما عدا فئة قليلة من السكان انقطعت للعلم وعكفت عليه « فأذن لها الشعب بذلك وأعفاها من العمل ما دامت تتعلم ، وإذا لم تثبت كفاءتها وتظهر حسن استعدادها سحبت منها الإجازة وأعيدت الى العمل . وعلى النقيض من هذا الأمر إذا تبين أن أحد العمال يقضى أوقات فراغه فى التعلم ويستفيد من ذلك لفرط ذكائه وفطنته وجده ، عندئذ ينقل من الحرف اليدوية إلى صف جماعة العلماء . وينتخب من بين هذه الجماعة السفراء ورجال الدين

---

١ - ص ٩٧ ٢ - ص ٩٧ ٣ - ص ١٠٤ ٤ - ص ٩٩

والنقباء والأمير نفسه [١] » . وقد جاءت فى الكتاب عبارة بارزة ردَّدتها الكتب فى الأزمان التالية لتاريخ الكتاب ، تلك هى المتصلة بالفكرة القائلة بأن ساعات العمل الطويلة تَنتجُ من وجود جيش كبير من القاعدين والكسالى والعاطلين عن العمل ؛ ولو أن كل فرد من السكان يقوم بقسطه من العمل باخلاص ومهارة وذمة لوُزِّعَ العمل توزيعا صحيحا ، ولخفَّ العبء الذى يصيب كل عامل ، ولأصبحت ساعاتٌ قصيرة من العمل تكفى حاجة الناس جميعا . وليس تخصيص ست ساعات من العمل يومياً بالشىء اليسير ، بل إننا نجد أن هذا الزمن هو أكثر مما يجب تخصيصه إذا ما نظرنا إلى العديد الأجزل من أبناء الأمم الأخرى القاعدين عن العمل :

« إننا نجد أن النساء بوجه عام يقمن بقسط قليل من الأعمال مع أن عددهن يبلغ نصف بنى البشر ؛ وإذا وجد بين النساء بعض المجتهدات العاملات فذلك لأن أزواجهن هم من القاعدين . ثم علينا أن نسقط من الحساب جماعة الرهبان العاطلين عن كل عمل ، ومن هؤلاء من يُدْعون رجال الدين ؛ أضف إلى هؤلاء جميع الأغنياء ، ولا سيما أولئك الذين يملكون إقطاعات من الأراضى واسعةً ، وهم الذين يُسمون الأشراف والأفاضل ، مع أسرهم المؤلفة من أشخاص عاطلين عن الأعمال ، وهم موجودون للنظر لا للاستعمال ؛ أضف إلى كل هؤلاء جميع الأقوياء الشديدين من المتسولين ، الذين يجوبون البلاد متظاهرين بأنهم من الزمنى ، ليكون لهم عذر ينتحلونه للتسول . وفى نهاية الحساب تجد أن عدد الناس الذين ينتفع بنو البشر بأعمالهم هو أقل كثيراً مما كنت تظن [٢] » .

وعلاوة على ما تقدم فان عدداً قليلا من العمال الذين يشتغلون ،

---

١ - ص ١٠٢ ٢ - ص ١٠١

يقومون بأعمال مفيدة لحياة بنى الانسان : « لأننا ونحن نقيس جميع الأشياء بنسبتها الى النقود ، ننشئ صناعات كثيرة فاسدة لانفع لها ، وهى على النقيض من ذلك ، تؤرث الثورة وتنشر البذخ والترف بين الناس[1] » . لقد كانت هذه الفكرة عزيزة على قلب فورير Fourier فيما تلا ذلك من الأزمان ، فقد سرّه وأبهجه أن يُصنَّف جميع طبقات « الطفيليين » من بنى الانسان . وفوق كل ما ذكر ، فهنالك مسألة هامة ردّدتها جميع كتب « المدن الفاضلة » هى أن من يحيا حياة بسيطة يلقى حُسن الجزاء . لأن كمية العمل تنقص إذا تجنب جميع الناس اقتناء الكماليات ونبذوا تغيير الأزياء . « وهكذا إذا استخدم جميع العمال فى عمل مفيد ، وما داموا يقنعون بالضرورى للحياة المتّزنة المركّزة فستتوفّر الأشياء والحاجات بكثرة لديهم[2] » . ويقصد مور (أو رفائيل هيثلودى) أن يضع من كل هذا نظرية اقتصادية خاصة هى : إنه ينتج من ضم العمل المشترك ، إلى الحياة البسيطة ، والآلات والأدوات المناسبة الفعالة : أن تنخفض ساعات العمل الى حد كبير جدا . وقد علق الكتّاب الذين جاءوا بعد زمن مور على هذه النظرية وقالوا بامكان تطبيقها .

لقد نظمت الحياة فى داخل (يوتوپيا) على أسس شيوعية : تجلب الميرة إلى الأسواق الاربع الرئيسية فى كل مدينة ؛ ومن هناك توزع مجاناً على الوجه التالى : أولاً تؤخذ منها حاجة المستشفيات ؛ ثانيا تؤخذ منها حاجة الموائد العامة ؛ ثالثا يعطى الفائض الى كل من يرغب فى أن يمتار . غير أنهم فى الواقع يأكلون جميعا على الموائد العامة لانه لا يقبل شخص ما — إذا لم يكن لديه مبرر معقول أو عذر مقبول — أن يأكل فى بيته لامن

---

١ — ص ١٠١ ٢ — ص ١٠٥

السخرية وسخف العقل أن يجشم المرء نفسه متاعب تهيئة طعام فى بيته ما تيسر له أن يتناول طعاماً فاخراً شهياً على الموائد العامة [١] . وقد قرأنا فى صفحة أخرى من الكتاب عبارة هى غاية فى التشاؤم لتعلقها بحجز الحرية « لقد ألزم فى (يوتوبيا) كلُّ إنسان طائرَه فى عنقه » فحجزت حريته من جميع الوجوه [٢] . وكل موادُّ المسرَّة وحاجات الحياة يحصل عليها الناس فى الجزيرة مجاناً بلا ثمن أو مقايضة أو رهن . ذلك لانه لا حاجة تحتِّم حبس أى شىء عن الناس ؛ فكل الاشياء متوفرة بكثرة ولا يخشى أن ينضب معينها ، لأن كل ما يستعمله الناس منها لا يتعدَّى غيضاً من فيض ، اللهم إلا إذا تهافت الناس على جمع ما يزيد عن حاجاتهم ، ولا يُعقل أن يفعل الناس ذلك ويجمعون أشياء موجودة بكثرة . والواقع اننا نجد فى جميع ضروب الحياة أن المخلوقات ، إما لخوفها من فقدان الحاجات فى المستقبل تعمد إلى جمع الأشياء بالنهب والسلب ؛ وإما للتباهى بتكديس أشياء عندها أكثر من غيرها . وهذه الشرور غير موجودة فى يوتوبيا [٣] » .

وتسبق كل غداء وعشاء محاضرة فى الأخلاق « فيقرأون شيئاً يتعلق بالسلوك الحسن والفضيلة . ولكنهم لا يطيلون لئلا يملَّ الحضور ذلك . ويبدأ الكهول فى الحديث ثم تتاح الفرصة للشبان ليظهروا ذكاءهم وكفاءاتهم [٤] » . وهذه المحاضرات والأحاديث فى (يوتوبيا) هى من الأسباب التى تنفر من الأكل فى البيوت الخاصة .

وفى الجزيرة تجارة : ولكنها تقوم على أركان غريبة ووفاقاً لأصول ومبادئ عجيبة خاصة (بيوتوبيا) . ولها نتائج لم يألفها التجار فى العالم . يحرص أهل يوتوبيا على أن تتوفر فيها المؤن والحاجات الضرورية قبل

---

١ — ص ١١١ ٢ — ص ١٠٩ ٣ — ص ١٠٨ ٤ — ص ١١٣

السماح بتصدير أية كمية من محصولاتها . ويشترطون أن لا يقل المخزون فى الجزيرة من أجل الاستهلاك المحلى ، عن المقادير التى تحتاج اليها البلاد مدة سنتين كاملتين . ثم يسمحون بالتصدير الى الخارج ، تارة دون ما ثمن أو مقابل ، وطوراً فى مقابل كميات هائلة من الذهب والفضة . وإليك ما ورد فى الكتاب عن التجارة :

« ولما كان هذا هو أسلوب الشعب فى المعيشة والتجارة ، كان بالضرورة محتوماً أن يحتفظوا بكميات هائلة من المواد والسلع . ولما كان أفراد الشعب يشعرون بأنهم جميعاً شركاء فى تلك المواد لا يوجد بينهم من ينعت بالفقر أو يوصف بالغنى . وعندما يجتمعون فى مجلس الأمة (الذى يعقد سنوياً فى عماروت — وهى العاصمة) ويحضره ثلاثة مندوبين عن كل مدينة ، يطرح أمام المجلس الفائض من المحصولات فى بعض المدن من جهة ، والعجز فى محصولات بعض المدن من الجهة الأخرى . ثم يحوَّل بعض الفائض إلى المدن التى هى بحاجة إليه مجاناً وبدون أى مقابل ما . وعلى هذا الوجه تعتبر الجزيرة بكاملها أسرة واحدة أو داراً واحدة . غير أنهم بعد ما يحتفظون بكميات من المحصولات تكفى الجزيرة كلها (وهم لا يعتبرون أن المحصولات تكفى البلاد إلا إذا احتفظوا بكميات تكفيهم مدة سنتين على الأقل) لأنهم لا يستطيعون التثبت من جودة محصول سنتهم الثانية ، يصدّرون من المحصولات الزائدة عن حاجتهم كميات كبيرة إلى الخارج . وهم يصدّرون الحبوب والعسل والصوف والكتان والخشب والصباغ والفراء الارجوانية والشمع والشحم والجلود والحيوانات الحية . ويوزّعون سبع هذه الصادرات مجاناً على فقراء البلاد المستوردة . أما الباقى فيبيعونه بأسعار مناسبة ومخفضة . وفى مقابل هذه البضائع يستوردون إلى بلادهم كميات هائلة من الذهب والفضة ومن الاشياء الاخرى التى يحتاجون اليها ؛ وهى فى الواقع ليست سوى الحديد . ونظراً لانهم ساروا فى تجارتهم على هذا

المنوال منذ أجل طويل فقد أصبح لديهم الآن كميات كبيرة من هذه الاشياء تزيد عما يتصوّره كل إنسان فى مثل تلك الظروف . ولهذا فقد أصبح سيان عندهم الآن أن يبيعوا فى مقابل نقدى ؛ أو أن يبيعوا نسيئة على أن يكون الدفع فى أجل معين . ولكنهم فى حالة الدين لا يعتمدون الافراد وانما يقبلون ضمان المدينة كلها فتوقع كفالة بالنيابة عن المدينة وبالإضافة اليها . ومتى حلّ أجل الدفع تجمع المدينة الدين من الافراد وتضعه فى صندوق عام وتنتفع به الى أن يطلبه اليوتوپيون . والواقع أن يوتوپيا لا تطالب بالقسط الاكبر من الدين المستحقّ لها ، لأن المطالبة بهذا الامر (الذى لا يكون ربحاً لهم ، وانما هو ربح للآخرين) ليست حقاً ولا معقولة . ولكن اذا أدّى الحال الى أن يقرض المدينون ذلك المال الى قوم آخرين فعندئذ يطالب اليوتوپيون بما لهم ؛ ويطالبون أيضاً بذلك المال اذا دخلوا فى حرب . لان الغاية التى من أجلها يكدّسون الذهب والفضة فى بلادهم هى الاحتياط للاخطار العظيمة أو النكبات الطارئة . ولا سيما أنهم يستأجرون الجنود الغرباء ويدفعون أجوراً باهظة لهم ، لأنه خير أن يعرّضوا الغرباء لمواجهة الأخطار من أن يطوّحوا بأبنائهم أمامها : وهم يعلمون أن بوسعهم أن يشتروا ويبيعوا حتى أعداءهم [١] » .

إن ما اقتبسناه هنا بصدد الذهب والفضة هو فى الواقع غاية أصحاب المذهب التجارى (Mercantalist Ideal) فى الاقتصاد الذى يرمى إلى جعل البلاد تغص بالذهب . ولكنهم مزجوا بتلك الغاية ازدراءهم واحتقارهم للذهب والفضة ولكل مواد التبرّج والزينة : « إن حماقة الناس وجهلهم هى التى رفعت قيمة الذهب والفضة نظراً لندرة وجودهما فى العالم [٢] » . وليس

---

١ — ص ١١٨ ٢ — ص ١٢٠

لهذين المعدنين منفعة لا يستطاع التجاوز عنها . ولكى لا تخـــدع قلوب اليوتوپيين ، ويغووا بعبادة ما يسمى بالمعادن الثمينة ، فان الذهب يستخدم لصنع الأوانى البيتيه كالقدور والأباريق التى تستعمل على الموائد العامة وفى البيوت الخاصة ، ويصنعون من الذهب أيضاً السلاسل والاغلال التى يربطون بها مماليكهم . واذا أرادوا التشهير بأحد ألبسوه فى أذنيه أقراطاً ذهبية وفى أصابعه خواتم ذهبية وفى عنقه سلاسل ذهبية وربطوا رأسه بعصابة من ذهب [١] » .

وإننا نقع فى هـــذا الخيال المسمى (يوتوپيا) على أمرين يسيئان إلى شعور الحضارة الحديثة : الأول أن اليوتوپيين لا يدخلون الحرب انتصاراً لمبادىء قويمة أو إحقاقاً لحقوق ثابتة صحيحة .

وهذا لا يبرّؤهم من تهمة الاستعمار : إذا زاد عدد سكان الجزيرة عن الحد الذى يسمح لكل إنسان أن يتمتع بحياة لينة ناعمة ، فعندئذ يرسل اليوتوپيون مستعمرين إلى المناطق المجاورة لهم « فيختارون من كل مدينة عدداً من المواطنين ويقيمون لهم مدينة جديدة وفاقاً لشرائعهم على أرض موات خربة لا يقيم فيها أحد ، ويضمّـون إليهم بعضاً من سكان تلك المناطق .. إذا اختاروا أن يساكنوهم وينضموا اليهم ... وإذا رفض أولئك السكان الانضمام اليهم والعيش معهم ، فعندئذ يؤمرون بالخروج من الحدود التى رسمها اليوتوپيون لأنفسهم ؛ وإذا قاوم هؤلاء وثاروا يعلن اليوتوپيون الحرب عليهم . لأنهم يعتبرون أن أعدل أسباب الحرب أن تمنع أمةٌ أمةً أخرى من إحراز جزء من الأرض لا تفلحها ولا تستفيد منها وإنما تتركها خراباً يباباً ، لأن لكل إنسان حسب منطوق القانون الطبيعى حقا فى جزء

---

١ — ص ١٢١

من الأرض الخراب يصلحها ويستغلها لإعالته وإغاثته [١] .

هذه هى نظرية (مجال الحياة Lebensraum) سافرة عارية . ومن الطلى حقاً أن نرى القانون الطبيعى يُقحَم هنا ، ويقحم بصورة منطقية فيما يتعلق بحقوق جميع سكان العالم إجمالاً فى جميع أراضى العالم إجمالاً وليس فقط فى الحقوق الوطنية الفردية التى يدّعيها أبناءُ الوطن الواحد فى أراضيهم كحقوق الافرنسيين مثلا فى أراضى فرنسا . « ويحارب اليوتوپيون — علاوة على ما تقدم — من أجل غايات ثلاث : يحاربون من أجل حماية وطنهم من العدوان الأجنبى ، ويدخلون الحرب لمساعدة أصدقائهم وحلفائهم فى إخراج العدو الأجنبى من أوطانهم ؛ ويحاربون لكى ينقذوا من الاستعباد والظلم شعباً مضطهداً ومظلوماً [٢] » . وفى حالة الحرب يحارب اليوتوپيون بشجاعة عظيمة ولكنهم يفضلون أن يستأجروا بالمال جنوداً مرتزقة يخوضون غمار الحرب إلى جانبهم « لأنه خير أن تعرض الغرباء للخطر الداهم من أن تطوّح بمواطنيك وتقذف بهم فى ساحات الوغى ونار الحرب الموقدة [٣] » . وبوسعك أن تكسب الحرب بالمهارة والخدعة دون اللجوء إلى إراقة الدماء ، لأن أعداء اليوتوپيين كثيراً ما يمكن شراؤهم بالمال أو باغوائهم على الخيانة ليصبحوا عيوناً على أمتهم [٤] » . وهذا يعنى فى الواقع تشكيل طابور خامس فى بلاد الأعداء يحرّضون على قتل أمرائهم .

والأمر الثانى الذى يسىء الى شعور الحضارة هو أننا ما نزال — وفاقاً لما ورد فى يوتوپيا — فى عالم الرق . لأنه علاوة على ضرورات الحروب التى تقتضى وجود الرقيق ، فان نعيم يوتوپيا يستوجب وجود طبقة من الرقيق وظيفتها القيام « بالأشغال الشاقة » ؛ وتقوم هـــذه بأعمال الجزارين تلك الأعمال التى يعتبرها اليوتوپيون المتأنقون أعمالا حقيرة . وتقوم أيضاً بكل

---

١ — ص ١٠٨ ٢ — ص ١٦٢ ٣ — ص ١١٩ ٤ — ص ١١٩

الأعمال الكريهة لكى لا يبقى للآخرين سوى الأعمال الناعمة اللينة . وبينما نجد ساعات العمل اليومى لكل يوتوبى لا تتجاوز الست ، نشاهد أن الرقيق يعمل طوال ساعات اليوم ، ويعمل وهو مقيد بالسلاسل والأغلال . والرقيق فى يوتوبيا ، طبقة مختلفة الأنواع ؛ منها مجرمو اليوتوبيين أنفسهم المحكوم عليهم ، ومنها مجرمو الشعوب الأخرى الذين يجلبهم التجار إما مقابل ثمن معين وإما بدون مقابل . يضاف إلى هذين الصنفين فقراء الشعوب الأخرى الذين يفدون إلى يوتوبيا مفضلين عيش الاستعباد فيها على الحرية فى بلاد أخرى وهذه الفئة تعامل معاملة أفضل من معاملة الصنفين الأولين ، وهى تستحق أن تعامل بالحسنى . ويعامل العبد الآبق والعبد الثائر معاملة الوحش ، ويُقضى عليه بالموت آخر الأمر . إن التوصية بعقوبة الاستعباد فى (يوتوبيا) هى فى الواقع احتجاج على عقوبة الإعدام التى كانت تنفذ حالاً فى كل من يرتكب أتفه الجرائم . ذلك لأن العبد ينفع المجتمع من الوجهة الاقتصادية ، بخلاف المجرم الذى ينفذ فيه حكم الإعدام . إلا أن ثمة عيباً يلازم (يوتوبيا) وهو وجوب وجود طبقة من الرقيق تقوم بالأشغال الشاقة .

ولقائل أن يقول إن هذا هو ضرب من القصص الخيالى ليس إلا ؛ ولقائل آخر أيضاً أن يقول إن هذا سخيف مضحك ، وإن ذاك غريب مستحيل ؛ والواقع أن هذه الأقوال صحيحة ؛ ولكن علينا أن نذكر فى هذا الصدد أن مور كان أحد أولئك التعساء فى الوجود الذين صُبغ هزلهم بالجد والوقار ، وشاب جدهم دعابة انقضت عليه من كامن نفوسهم ؛ هؤلاء الناس تعساء حقاً لأن المجتمع لن يفهمهم . وأحسن حظاً منهم أولئك الذين يصرحون عند هزلهم بأنهم يهزلون ، ويقولون عند جدهم إنهم يجدون . لقد كان مور من أصحاب الخيال الذين يبنون القصور فى الهواء . ولسنا ملزمين بأن نأخذ بحرفية كل ما كتبه . ولكن لو تسنى لنا أن ننفذ إلى سريرته ونتفرس فى عينيه ونقرأ ما أخفى فى نفسه ، عند ما كتب أو فكر فى بعض فقرات كتابه ،

لفهمناه على حقيقته ولعرفنا ما قصد اليه من ذلك الكتاب . ولكننا نجد الأقلّ من الخيال يُغشّى المواضيع الجوهرية التى يطرقها رفائيل هيثلودى عند ما يتصدّى ، وهو منقبض الصدر للبحث وراء العدالة وطلب الانصاف ويندب الظلم والجور اللذين هما من ثمار الأنانية الناشئة عن حب الانسان للمال والمادة والسلطان . ونخرج من ذلك كله بنتيجة واحـــدة هى — فى رأيه — أن الشيوع ضرورة لازبة لهـــذا العالم . ولكى نتمكن من تقدير الأثر الدائم الذى خلّفه مور ليس علينا إلا أن نستمع إلى هيثلودى فى ساعات مرحه وحبوره ، وننصت إلى أفكاره النيرة وآرائه القيمة ، وقد نعجب منها وندهش لها ونحسبها ، وهى تتلى علينا ، أنها قيلت بالأمس أو فى صباح اليوم ولعل فى إيراد بعض مقتبسات منها — وهى مع الأسف مختصرة بقدر ما يسمح لنا المقام به — ما يغنينا عن عرضها كاملة . وأولها يتعلق بمساوىء الملكية الشخصية ، وهو قول موزون إلى حدّ ما ، ويقع فى آخر الكتاب الأول حيث يتطلع هيثـــلودى إلى (يوتوبيا) ليقابل بأحوالها الأحوال السيئة التى سادت انكلترا يومئذ .

« إننى أرغب فى أن أبوح صراحة بما تكنه نفسى ويخالج ضميرى : إننى لا أتصوّر مطلقاً أن بالامكان أن تُحكم بلاد بالعدل ، وأن يتمتع سكانها بالسعادة ، ما دامت هنالك ملكية شخصية للاشياء ، وما دامت النقود مقياس جميع الأشياء الأخرى . أقول تُحكم بالعدل لأن أحسن الأشياء تؤول إلى أسوإ الناس ؛ وأقول لا يتمتع السكان بالسعادة لأن كل الأشياء تقسم بين نفر قليل (ولا يكون ذلك النفر أيضاً سعيداً سعادة كاملة) وتخيم التعاسة والبؤس على باقى الناس ... وقد رسمتُ هـــذه الأشياء فى مخيلتى ووازنت بينها فى فكرى ، فوجدتنى قد يممت شطر افلاطون ... لأن هذا الحكيم قد رأى بعين بصيرته ، وصائب حكمته ، أن خير وسيلة لاسعاد الأمة هى أن تضع جميع أفرادها فى مستوى واحد ، وهذا لا يمكن تحقيقه ما دامت

فى الوجود ملكية شخصية ؛ ذلك لأنه ما دام كل إنسان يستأثر لنفسه بكل ما يستطيع الحصول عليه من الأشياء بشتى الطرق والأسباب والوسائل ، فيجمع نفر قليل من بين أفراد الأمة الكثيرى العدد الثروة ويُخصّون بها فينتج عن ذلك أن يعضّ الفقر بنابه العديد الأعزل . وهذا ما حدا بى الى القول إنه لن يكون توزيع عادل وصحيح لجميع الأشياء إلى أن تزول الملكية الفردية من الوجود ، كما أن العالم لن يحكم بوجه يضمن السعادة للناس الى أن يتم ذلك . وما دام نظام الملكية الشخصية سائداً فستظل أكثرية الجنس البشرى وخيارُ أبنائه تحت أثقال الظلم وأغلال الاستعباد وتُقلقهم التعاسة ويؤلمهم الفقر ... ومع أنى أدرك أن من الصعب ازالة الملكية الشخصية حالا ولكننى أعتقد يقينا أن بالامكان تخفيف ويلاتها . لانه اذا سُن قانون يمنع كل فرد من تملك مقدار من الأرض يزيد على مساحة معينة ، ويحظر على كل إنسان أن يحرز ويحوز أكثر من مبلغ معين من النقود . . . فان حدّة هذه المساوئ تخف وأثرها يفقد[1] » .

ونجد هيثلودى يتأوّه عندما يعيد هذا الحديث فى آخر الكتاب الثانى ويقول : إن (يوتوبيا) هى الجمهورية الوحيدة الخليقة بأن تسمى جمهورية ؛ ثم يتابع حديثه :

« أما فى جميع الأماكن الأخرى فاننا نشاهد الناس يتحدّثون عن الجمهورية ، ولكن كل فرد منهم لا يهتم إلا بجرّ المغنم لنفسه وجمع المال لشخصه ؛ ولكننا هنا ، حيث لا يحوز فرد ّما ولا يحرز أموالاً شخصية ، نجد الناس جميعاً يعملون باخلاص وذمة وغيرة من أجل الصالح العام ؛ والحق أنه ليس بعجيب أن ينتهج الناس هذا السبيل المغاير ؛ لأن الانسان

---

١ — ص ٧٤

فى البلاد الأخرى يُدرك يقينا أنه إذا لم يدّخر شيئاً لنفسه فسوف يموت فى النهاية جوعاً مهما تكن بلاده فى رخاء مستمر ؛ ومن هنا تنشأ ضرورة تفضيل مصلحته الفردية على الصالح العام ؛ غير أن الحال فى (يوتوپيا) هى على النقيض من هذا : فلكل امرئ حق فى جميع الموجودات ، وكل انسان يدرك أنه ما دامت المستودعات العامة تنضّ بالمؤن والأغذية فلن يحتاج أحد شيئا ؛ وليس ثمة توزيع ظالم ، وليس هنالك فقراء ، وليس هناك محتاجون ؛ ومع أن فرداً ما ، لا يملك شيئاً ما ، فانهم جميعاً أغنياء ؛ ذلك لأنه لا فائدة يجنيها المرء من الغنى أحسن من أن يحيا حياة طيبة هادئة ، ويعيش عيشة هنية راضية لا تشوبها شوائب القلق والاضطراب ، فلا يخشى نوائب الحدثان ، ولا تزعجه زوجته بشكايات لاحدّ لها خوفاً على مستقبلها ومستقبل أولادها ، ولا يحزنه عجزه عن تقديم مهر لابنته . والسكان هنا لا يعبأون أبداً بحياتهم ، ولا يفكرون فى ثرائهم وثراء أزواجهم وأولادهم وأولاد إخوانهم وأحفادهم وجميع عقبهم من بعدهم . ولا ينال العمال المتقاعدون نصيباً من ضروريات الحياة ومستلزماتها يقلّ عن نصيب أمثالهم من العمال الفعالين . وإننى ـ فى هذا المقام ـ أتحدّى كلّ من يجرؤ على مقارنة هذه المساواة بحياة الأمم الأخرى ؛ وليخذلنى الله إن وجدت فيها أثراً للمساواة أو ظلا للعدل[١] » .

ثم ينطلق هيثلودى فى حديثه عن العدل المفقود من العالم فتتجلى بلاغته وتظهر حكمته :

« أقول : أية عدالة هذه التى تمكن للنبلاء والصاغة والمرابين ولكل من لا يقوم بعمل ما ، أو يقوم بأعمال غير منتجة أو نافعة للمجتمع ، فى أن

---

١ — ص ١٩٧

يعيشوا عيشة لينة ناعمة مبهجة ؛ بينما نجد العمال الذين يقومون بالأشغال الشاقة وسائقى العربات والحدادين والنجارين والحراثين الذين يشتغلون أكثر من الدواب ، ويقومون بالأعمال الضرورية لحياة المجتمع ، تلك الأعمال التى لا يستغنى عنها بلد ما ، لا ينالون رزق الكفاف ، ويعيشون عيشة بؤس وشقاء ، إذا قيست بها حياة الأنعام كانت أفضل منها ؟ . . وتدمى قلوب هؤلاء المساكين فرقاً متى ذكروا أيام شيخوختهم المقبلة . إن أجورهم نزرة يسيرة لا تكاد تكفيهم لقوتهم اليومى فضلا عن أن يدخروا منها شيئا لأيام عجزهم وتعطلهم عن العمل . أليس ظلماً صارخاً ذلك الذى يبسط به الرزق للنبلاء - كما يسمونهم - وللصاغة وأمثالهم من الكسالى الذين لا يعملون شيئا أو يقومون بأعمال لا تفيد المجموع شيئا ، ويقبضه عن الحراث المسكين وعامل المنجم والعمال الآخرين والحدادين والنجارين وغيرهم من أركان الحياة فى البلاد ؟ . . . وفوق كل هذا يقوم الأغنياء ليس بالغش وحده ، وإنما بسن القوانين العامة أيضاً ، فينزعون من فم الفقير جزءاً من قوته اليومى . وهكذا فان ما اعتبرناه قبلاً ظلماً صارخاً فى أن يُسلب العامل جزاء عمله المفيد للمجتمع ، أصبح الآن يسمى فى عرف القانون عدلاً [١] » .

وأخيراً استمع إلى هذه الخاتمة الملتهبة التى هى فى الواقع ثورة جامحة على أحوال العالم كله :

« من أجل ذلك فانى كلما جالت بخاطرى تلك الأحوال السائدة فى العالم وأخذت على لبى لا أستطيع كبح جماح نفسى ، غفر الله لى ، عن الاعتقاد بأن كل الحكومات التى شاهدتها أو عرفتها ، هى فى الواقع

---

١ - ص ١٩٩

مؤامرة من الأغنياء ، الذين يستترون وراء حكم الجمهور ، يرومون من ورائها تنفيذ غاياتهم الخاصة ؛ وهم يسلكون فى ذلك كل سبيل ووسيلة تؤدى أولاً الى الاحتفاظ بكل ما تملكوه من الأموال التى أحرزوها بالطرق المعوجة ، وثانياً الى استئجار واستغلال عمل الفقراء فى مقابل أزهد الأجور وأتفهها ، وإلى ظلم العمال واستعبادهم [١] » .

إن هذه الآراء (ونحن نوردها على علاتها كما تفوّه بها هيثلودى) هى التى جعلت من يوتوبيا كتاباً خالداً مضى عليه أربعمئة عام . وإن من يترسم مبادئ ماركس فى الثورة الاشتراكية يجد فى مور (أو فى هيثلودى ، الانسان الذى خلقه مور) رسوماً توصل الى كثير من تلك المبادئ . وإليك بعضها . وهذه طبعاً علاوة على مساوئ الملكية الشخصية التى تحدثنا عنها فيما سبق حسب رأى مور : تبحث يوتوبيا فى :

(١) سيئات الطبقات غير المنتجة ،

(٢) إسرافنا وإساءة استخدام الأموال ،

(٣) مساوئ النقود ولا سيما تأثير الذهب السام ،

(٤) استغلال الغنى للفقير ؛ وأخيراً وهذا أعجب مافى الكتاب :

(٥) تصوير الدولة كمنظمة طبقية « مؤامرة بين الأغنياء » .

وإلى جانب كل هذا نجد أمراً لعله يتمشى مع المذاهب الفوضوية — هو الدعوة إلى تخفيض ساعات العمل بتنحية الكسالى القاعدين عن العمل لغير ما ضرورة أو مبرر مقبول ؛ وبازالة الكماليات من الوجود . والحق أنه مهما يقال فى مور فقد أوجد فيه رفائيل هيثلودى تلميذاً من أتباع الاشتراكية الماركسية الثورية لا يشق له غبار [٢] .

---

١ — ص ١٩٩

٢ — ص ٧٠ The Socialist Tradition, Alexander Gray